/ وقال شيخ الإسلام : ١/٨٨

اعلم ـ رحمك الله ـ أن الشرك بالله أعظم ذنب عُصى الله به، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء: ٤٨ ، ١١٦] وفى الصحيحين أنه ﷺ سئل: أى الذنب أعظم ؟ قال: « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » (١) !! والند المثل. قال تعالى : ﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** ﴾ [الزمر : ٨] فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الإلهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة .

فإن الله ـ سبحانه ـ هو المستحق للعبادة لذاته ؛ لأنه المألوه المعبود، الذى تألهه القلوب وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشدائد ، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية ، فكيف يصلح أن يكون إلها ؟ قال الله تعالى : ﴿ **وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الزخرف : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾ [مريم : ٩٣] ، وقال الله تعالى : ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [النساء : ١٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الذاريات : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا / لَهُ الدِّينَ** ﴾ ١/٨٩ [الزمر : ١١] ، فالله ـ سبحانه ـ هو المستحق أن يعبد لذاته ، قال تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الفاتحة : ٢] ، فذكر (الحمد) بالألف واللام التى تقتضى الاستغراق لجميع المحامد ، فدل على أن الحمد كله لله ، ثم حصره فى قوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] . فهذا تفصيل لقوله : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ . فهذا يدل على أنه لا معبود إلا الله ، وأنه لا يستحق أن يعبد أحد سواه ، فقوله: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته : من المحبة والخوف ، والرجاء ، والأمر ، والنهى. ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ إشارة إلى ما اقتضته الربوبية ، من التوكل والتفويض والتسليم ؛ لأن الرب ـ سبحانه وتعالى ـ هو المالك ، وفيه أيضا معنى الربوبية والإصلاح ، والمالك الذى يتصرف فى ملكه كما يشاء .

---

(١) البخارى فى التوحيد (٧٥٢٠) ، (٧٥٣٢) ، ومسلم فى الإيمان (٨٦/ ١٤١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : ١] فلا يرى نفعا،ولا ضرا، ولا حركة ، ولا سكونًا ، ولا قبضا ، ولا بسطا ، ولا خفضًا ، ولا رفعًا ، إلا والله ـ سبحانه وتعالى ـ فاعله ، وخالقه ، وقابضه ، وباسطه ، ورافعه ، وخافضه . فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات ، وهو علم صفة الربوبية . والأول هو علم صفة الإلهية وهو كشف سر الكلمات التكليفيات .

فالتحقيق بالأمر والنهى ، والمحبة والخوف والرجاء ، يكون عن كشف علم الإلهية .

والتحقيق بالتوكل والتفويض والتسليم يكون بعد كشف علم الربوبية ، /وهو علم ١/٩٠
التدبير السارى فى الأكوان،كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] . فإذا تحقق العبد لهذا المشهد ، ووفقه لذلك ، بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه فى عبوديته ، فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين ، فإن جميع مشاهد الرحمة واللطف والكرم ، والجمال داخل فى مشهد الربوبية .

ولهذا قيل : إن هذه الآية جمعت جميع أسرار القرآن : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؛ لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهى ، والمحبة والخوف والرجاء ، كما ذكرنا ، وآخرها اقتضى عبوديته بالتفويض والتسليم ، وترك الاختيار ، وجميع العبوديات داخلة فى ذلك .

ومن غاب عن هذا المشهد وعن المشهد الأول ، ورأى قيام الله عز وجل على جميع الأشياء ، وهو القيام على كل نفس بما كسبت ، وتصرفه فيها ، وحكمه عليها ، فرأى الأشياء كلها منه صادرة عن نفاذ حكمه ، وإرادته القدرية ، فغاب بما لاحظ عن التمييز والفرق ، وعطل الأمر والنهى والنبوات ، ومرق من الإسلام مروق السهم من الرَّمِيَّةِ .

وإن كان ذلك المشهد قد أدهشه وغيب عقله ، لقوة سلطانه الوارد ، وضعف قوة البصيرة ؛ أن يجمع بين المشهدين ، فهذا معذور منقوص إلا من جمع بين المشهدين : الأمر الشرعى ، ومشهد الأمر الكونى الإرادى . وقد زلت فى هذا المشهد أقدام كثيرة من السالكين ؛ لقلة معرفتهم بما بعث الله به المرسلين ؛ وذلك لأنهم عبدوا الله على مرادهم منه، ففنوا بمرادهم عن مراد الحق ـ عز وجل ـ منهم؛لأن الحق يغنى بمراده ومحبوبه ، ولو عبدوا الله على / مراده منهم لم ينلهم شىء من ذلك؛لأن العبد إذا شهد عبوديته ولم يكن ١/٩١
مستيقظاً لأمر سيده ، لا يغيب بعبادته عن معبوده ، ولا بمعبوده عن عبادته ، بل يكون له عينان ينظر بأحدهما إلى المعبود كأنه يراه ؛كما قال ﷺ لما سئل عن الإحسان:« أن تعبد الله

كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [1] ، والأخرى ينظر بها إلى أمر سيده ، ليوقعه على الأمر الشرعى الذى يحبه مولاه ويرضاه .

فإذا تقرر هذا ، فالشرك إن كان شركاً يكفر به صاحبه ، وهو نوعان :

شرك فى الإلهية ، وشرك فى الربوبية .

فأما الشرك فى الإلهية فهو : أن يجعل لله نداً ، أى : مثلا فى عبادته ، أو محبته ، أو خوفه ، أو رجائه ، أو إنابته ، فهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، قال تعالى : ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ** ﴾ [الأنفال : ٣٨] وهذا هو الذى قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركى العرب ؛ لأنهم أشركوا فى الإلهية ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ الآية [البقرة : ١٦٥] ، وقالوا : ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ الآية [الزمر : ٣]، وقالوا : ﴿ **أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾ ! [ص : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ **أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ** ﴾ [ق : ٢٤ ـ ٢٦] .

وقال النبى ﷺ لحُصَيْن : « كم تعبد ؟ » قال : ستة فى الأرض وواحد فى السماء . قال : « فمن الذى تعد لرغبتك ورهبتك ؟» قال : الذى فى السماء . قال : « ألا تسلم فأعلمك كلمات ؟ » فأسلم . فقال النبى ﷺ : « قل : اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِى رشْدى ، وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي » [2] .

وأما الربوبية فكانوا مقرين بها ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ / السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [لقمان : ٢٥] ، وقال : ﴿ **قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ** ﴾ ؟ [المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٩] ، وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هى التى تُنَزِّل الغَيْثَ ، وترزق العالم وتدبره ، وإنما كان شركهم كما ذكرناه : اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئا من دون الله كما يحب الله تعالى ، فقد أشرك ، وهذا كقوله : ﴿ **قَالُوا وَهُمْ** ١/٩٢

(١) البخارى فى الإيمان (٥٠) ، ومسلم فى الإيمان (٩/ ٥) ، وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) ، وابن ماجه فى المقدمة (٦٣) ، وأحمد ١/ ٢٧ ، ٥١ .

(٢) الترمذى فى الدعوات (٣٤٨٣) ، وقال : « هذا حديث غريب » عن عمران بن حصين رضى الله عنه .

فيها يَخْتصِمُونَ . تَاللَّه إن كُنَّا لَفي ضَلالٍ مُبِينٍ . إذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِين ﴾ [الشعراء: ٩٦ ـ ٩٨]. وكذا من خاف أحداً كما يخاف الله ، أو رجاه كما يرجو الله ، وما أشبه ذلك .

وأما النوع الثانى : فالشرك فى الربوبية ، فإن الرب سبحانه ـ هو المالك المدبر ، المعطى المانع ، الضار النافع ، الخافض الرافع، المعز المذل ،فمن شهد أن المعطى أو المانع ، أو الضار أو النافع ، أو المعز أو المذل غيره ، فقد أشرك بربوبيته .

ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك ، فلينظر إلى المعطى الأول مثلا ،فيشكره على ما أولاه من النعم ، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافئه عليه ، لقوله عليه السلام : « من أسْدَى إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه » [1] لأن النعم كلها لله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّه ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فالله ـ سبحانه ـ هو المعطى على الحقيقة ، فإنه هو الذى خلق الأرزاق وقدرها ، وساقها إلى من يشاء من عباده ، فالمعطى هو الذى أعطاه ، وحرك قلبه لعطاء غيره . فهو الأول والآخر .

١/٩٣ / ومما يقوى هذا المعنى قوله ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجَفَّت الصُّحُفُ » . قال الترمذى : هذا حديث صحيح [2] . فهذا يدل على أنه لا ينفع فى الحقيقة إلا الله ، ولا يضر غيره ، وكذا جميع ما ذكرنا فى مقتضى الربوبية .

فمن سلك هذا المسلك العظيم استراح من عبودية الخلق ونظره إليهم ، وأراح الناس من لَوْمِه وذَمِّه إياهم ، وتجرَّد التوحيد فى قلبه ، فقوى إيمانه ، وانشرح صدره ، وتنور قلبه ، ومن توكل على الله فهو حسبه ، ولهذا قال الفُضَيْل بن عياض ـ رحمه الله ـ : من عرف الناس استراح . يريد ـ والله أعلم ـ أنهم لا ينفعون ولا يضرون .

وأما الشرك الخفى : فهو الذى لا يكاد أحد أن يسلم منه ، مثل : أن يحب مع الله غيره .

---

(١) أبو داود فى الزكاة (١٦٧٢) ، والنسائى فى الزكاة (٢٥٦٧) ، وأحمد ٢/ ٦٨ ، ٩٦ ، كلهم عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٦ .

فإن كانت محبته لله مثل حب النبيين والصالحين ، والأعمال الصالحة فليست من هذا الباب ؛ لأن هذه تدل على حقيقة المحبة ، لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه ، ويكره ما يكرهه ، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته ؛ لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة، ويدل على نقص المحبة قول الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ الآية [آل عمران : ٣١] . فَلَيْسَ الكَلام فى هذا . / إنما الكلام ١/٩٤
فى محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى ، فهذا لا شك أنه نقص فى توحيد المحبة لله ، وهو دليل على نقص محبة الله تعالى ، إذ لو كملت محبته ، لم يحب سواه .

ولا يرد علينا الباب الأول ؛ لأن ذلك داخل فى محبته . وهذا ميزان لم يجر عليك ، كلما قويت محبة العبد لمولاه ، صغرت عنده المحبوبات وقلت ، وكلما ضعفت ، كثرت محبوباته وانتشرت .

وكذا الخوف ، والرجاء ،وما أشبه ذلك ، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه ، قال الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ** ﴾ [الأحزاب: ٣٩] ، وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق ، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف كما ذكرنا فى المحبة ، وكذا الرجاء وغيره ، فهذا هو الشرك الخفى ، الذى لا يكاد أحد أن يسلم منه ، إلا من عصمه الله تعالى . وقد روى أن الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل (١) .

وطرق التخلص من هذه الآفات كلها : الإخلاص لله عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ١١٠] ، ولا يحصل الإخلاص إلا بعد الزهد، ولا زهد إلا بتقوى ، والتقوى متابعة الأمر والنهى .

/ فصل ١/٩٥

ولابد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل ، فتعتصم به ، فتقل آفاتها ، أو تذهب عنها بالكلية ، بحول الله وقوته .

فنقول : اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة : المحبة ، والخوف ، والرجاء . وأقواها المحبة ، وهى مقصودة تراد لذاتها ؛ لأنها تراد فى الدنيا والآخرة

---

(١) أحمد ٤٠٣/٤ عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ولفظه : « اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل . . . » ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٢٦/١٠ : « رجال أحمد رجال الصحيح . . . » .

بخلاف الخوف فإنه يزول فى الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [يونس : ٦٢] ، والخوف المقصود منه : الزجر والمنع من الخروج عن الطريق ، فالمحبة تلقى العبد فى السير إلى محبوبه ، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه ، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب ، والرجاء يقوده ، فهذا أصل عظيم ، يجب على كل عبد أن ينتبه له ، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه ، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره .

فإن قيل: فالعبد فى بعض الأحيان ، قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه ، فأى شىء يحرك القلوب ؟ قلنا : يحركها شيئان :

أحدهما : كثرة الذكر للمحبوب ؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير ، فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ الآية [الأحزاب : ٤١ ، ٤٢] .

١/٩٦ والثانى : مطالعة آلائه ونعمائه ، قال الله تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ / تُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل : ٥٣] . وقال تعالى : ﴿ **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه ، من تسخير السماء والأرض ، وما فيها من الأشجار والحيوان ، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة ، من الإيمان وغيره ، فلابد أن يثير ذلك عنده باعثا ، وكذلك الخوف ، تحركه مطالعة آيات الوعيد ، والزجر ، والعرض ، والحساب ونحوه ، وكذلك الرجاء ، يحركه مطالعة الكرم ، والحلم ، والعفو .

وما ورد فى الرجاء والكلام فى التوحيد واسع . وإنما الغرض التنبيه على تضمنه الاستغناء بأدنى إشارة ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

/ وَقَال شَيْخ الإسلام ـ رَحمه اللّه : ١/٩٧

فَصْل

ذكر الله عن إمامنا إبراهيم خليل الله أنه قال لمناظريه من المشركين الظالمين : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨١ ، ٨٢] .

وفى الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود ؛ أن النبى ﷺ فسر الظلم بالشرك وقال : « ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾؟ »(١) . فأنكر أن نخاف ما أشركوهم بالله من جميع المخلوقات العلويات والسفليات ، وعدم خوفهم من إشراكهم بالله شريكا لم ينزل الله به سلطاناً ، وبين أن القسم الذى لم يشرك هو الآمن المهتدى .

وهذه آية عظيمة تنفع المؤمن الحنيف فى مواضع ، فإن الإشراك فى هذه الأمة أخفى من دَبِيب النمل ، دع جليله ، وهو شرك فى العبادة والتأله ، وشرك فى الطاعة والانقياد، وشرك فى الإيمان والقبول .

فالغالية من النصارى والرافضة وضُلال الصوفية والفقراء والعامة ، يشركون بدعاء غير الله تارة ، وبنوع من عبادته أخرى ، وبهما جميعاً تارة ، ومن أشرك هذا الشرك أشرك فى الطاعة .

/ وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك ، وأتباع القضاة ، والعامة المتبعة لهؤلاء ، يشركون ١/٩٨ شرك الطاعة ، وقد قال النبى ﷺ لعُدىّ بن حاتم لما قرأ : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة : ٣١] فقال : يا رسول الله ، ما عبدوهم؟ فقال : « ما عبدوهم ، ولكن أحَلُّوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم »(٢) .

فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه ، والحرام ما حرمه ، والحلال

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٧٦) .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٥) وقال : « هذا حديث غريب . . . » .

ما حلله ، والدين ما شرعه ، إما ديناً وإما دنيا ، وإما دنيا وديناً . ثم يخوف من امتنع من هذا الشرك ، وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئا فى طاعته بغير سلطان من اللّه ، وبهذا يخرج من أوجب اللّه طاعته من رسول ، وأمير وعالم ووالد وشيخ وغير ذلك .

وأما الشرك الثالث : فكثير من أتباع المتكلمة ، والمتفلسفة ، بل وبعض المتفقهة والمتصوفة ، بل وبعض أتباع الملوك والقضاة ، يقبل قول متبوعه فيما يخبر به من الاعتقادات الخبرية ، ومن تصحيح بعض المقالات وإفساد بعضها ، ومدح بعضها ، وبعض القائلين ، وذم بعض ، بلا سلطان من اللّه . ويخاف ما أشركه فى الإيمان والقبول ، ولا يخاف إشراكه باللّه شخصاً فى الإيمان به، وقبول قوله بغير سلطان من اللّه .

وبهذا يخرج من شرع اللّه تصديقه من المرسلين ، والعلماء المبلغين ، والشهداء الصادقين ، وغير ذلك . فباب الطاعة والتصديق ينقسم إلى مشروع فى حق البشر وغير مشروع .

وأما العبادة والاستعانة والتأله ، فلا حق فيها للبشر بحال ، فإنه كما قال القائل : ما
١/٩٩ وضعت يدى فى قَصْعَةِ أحد إلا ذللت له ! ولا ريب أن من نصرك ورزقك / كان له سلطان عليك ، فالمؤمن يريد ألا يكون عليه سلطان إلا للّه ولرسوله ، ولمن أطاع اللّه ورسوله ، وقبول مال الناس فيه سلطان لهم عليه ، فإذا قصد دفع هذا السلطان وهذا القهر عن نفسه ، كان حسناً محموداً ، يصح له دينه بذلك ، وإن قصد الترفع عليهم والترؤس والمراءاة بالحال الأولى كان مذموماً ، وقد يقصد بترك الأخذ غنى نفسه عنهم ويترك أموالهم لهم .

فهذه أربع مقاصد صالحة : غنى نفسه وعزتها حتى لا تفتقر إلى الخلق ولا تذل لهم ، وسلامة مالهم ودينهم عليهم حتى لا تنقص عليهم أموالهم ، فلا يذهبها عنهم ، ولا يوقعهم بأخذها منهم فيما يكره لهم من الاستيلاء عليه ، ففى ذلك منفعة له ألا يذل ولا يفتقر إليهم، ومنفعة لهم أن يبقى لهم مالهم ودينهم ، وقد يكون فى ذلك منفعة بتأليف قلوبهم بإبقاء أموالهم لهم ، حتى يقبلوا منه ، ويتألفون بالعطاء لهم ، فكذلك فى إبقاء أموالهم لهم ، وقد يكون فى ذلك أيضاً حفظ دينهم ، فإنهم إذا قبل منهم المال قد يطمعون هم أيضاً فى أنواع من المعاصى ، ويتركون أنواعا من الطاعات ، فلا يقبلون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى ذلك منافع ومقاصد أخر صالحة .

وأما إذا كان الأخذ يفضى إلى طمع فيه حتى يستعان به فى معصية أو يمنع من طاعة ، فتلك مفاسد أخر ، وهى كثيرة ترجع إلى ذله وفقره لهم ، فإنهم لا يتمكنون من منعه من

طاعة إلا إذا كان ذليلاً أو فقيراً إليهم ، ولا يتمكنون هم من استعماله فى المعصية إلا مع ذله أو فقره ، فإن العطاء يحتاج إلى جزاء ومقابلة ، فإذا لم تحصل مكافأة دنيوية من مال أو نفع لم يبق إلا ما ينتظر من لمنفعة الصادرة منه إليهم .

/ وللرد وجوه مكروهة مذمومة ، منها: الرد مراءاة بالتشبه بمن يرد غنى وعزة ورحمة ١/١٠٠
للناس فى دينهم ودنياهم ، ومنها : التكبر عليهم والاستعلاء حتى يستعبدهم ، ويستعلى عليهم بذلك ، فهذا مذموم أيضاً . ومنها : البخل عليهم فإنه إذا أخذ منهم احتاج أن ينفعهم ، ويقضى حوائجهم ، فقد يترك الأخذ بُخْلا عليهم بالمنافع . ومنها : الكسل عن الإحسان إليهم ، فهذه أربع مقاصد فاسدة فى الرد للعطاء : الكبر ، والرياء ، والبخل ، والكسل .

فالحاصل : أنه قد يترك قبول المال لجلب المنفعة لنفسه ، أو لدفع المضرة عنها ، أو لجلب المنفعة للناس ، أو دفع المضرة عنهم ، فإن فى ترك أخذه غنى نفسه وعزها ، وهو منفعة لها ، وسلامة دينه ودنياه مما يترتب على القبول من أنواع المفاسد ، وفيه نفع الناس بإبقاء أموالهم ودينهم لهم ، ودفع الضرر المتولد عليهم إذا بذلوا بذلاً قد يضرهم ، وقد يتركه لمضرة الناس ، أو لترك منفعتهم ، فهذا مذموم كما تقدم ، وقد يكون فى الترك أيضا مضرة نفسه ، أو ترك منفعتها ، إما بأن يكون محتاجاً إليه فيضره تركه ، أو يكون فى أخذه وصرفه منفعة له فى الدين والدنيا ، فيتركها من غير معارض مقاوم ؛ فلهذا فصلنا هذه المسألة ، فإنها مسألة عظيمة ، وبإزائها مسألة القبول أيضا ، وفيها التفصيل ، لكن الأغلب أن ترك الأخذ كان أجود من القبول ؛ ولهذا يعظم الناس هذا الجنس أكثر ، وإذا صح الأخذ كان أفضل ، أعنى الأخذ والصرف إلى الناس .

١/١٠١ / سئل الشيخ ـ رحمه اللّه ـ عمن قال : يجوز الاستغاثة بالنبى ﷺ فى كل ما يستغاث اللّه تعالى فيه : على معنى أنه وسيلة من وسائل اللّه تعالى فى طلب الغوث ، وكذلك يستغاث بسائر الأنبياء والصالحين فى كل ما يستغاث اللّه تعالى فيه .

وأما من توسل إلى الله تعالى بنبيه فى تفريج كربة فقد استغاث به ، سواء كان ذلك بلفظ الاستغاثة ، أو التوسل ، أو غيرهما مما هو فى معناهما ، وقول القائل : أتوسل إليك يا إلهى برسولك ! أو أستغيث برسولك عندك ، أن تغفر لى ، استغاثة بالرسول حقيقة فى لغة العرب وجميع الأمم .

قال : ولم يزل الناس يفهمون معنى الاستغاثة بالشخص ، قديما وحديثا ، وأنه يصح إسنادها للمخلوقين ، وأنه يستغاث بهم على سبيل التوسل ، وأنها مطلقة على كل من سأل تفريج الكربة بواسطة التوسل به ، وأن ذلك صحيح فى أمر الأنبياء والصالحين .

قال : وفيما رواه الطبرانى عن النبى ﷺ : أن بعض الصحابة ـ رضى اللّه عنهم ـ قال: استغيثوا برسول اللّه ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث باللّه » (١) . ١/١٠٢ / أن النبى ﷺ لو نفى عن نفسه أنه يستغاث به ، ونحو ذلك ، يشير به إلى التوحيد ، وإفراد البارى بالقدرة ، لم يكن لنا نحن أن ننفى ذلك ، ونجوز أن نطلق أن النبى ﷺ والصالح يستغاث به ، يعنى فى كل ما يستغاث فيه باللّه تعالى ، ولا يحتاج أن يقول على سبيل أنه وسيلة وواسطة ، وأن القائل لا يستغاث به متنقصا له ، وأنه كافر بذلك ، لكنه يعذر إذا كان جاهلا ، فإذا عرف معنى الاستغاثة ثم أصر على قوله بعد ذلك صار كافراً .

والتوسل به استغاثة به كما تقدم ، فهل يعرف أنه قال أحد من علماء المسلمين : إنه يجوز أن يستغاث بالنبى ﷺ والصالح ، فى كل ما يستغاث به اللّه تعالى ؟ وهل يجوز إطلاق ذلك ؟ كما قال القائل ، وهل التوسل بالنبى ﷺ أو الصالح أو غيرهما إلى اللّه تعالى فى كل شىء استغاثة بذلك المتوسل به ؟ كما نقله هذا القائل عن جميع اللغات ، وسواء كان التوسل بالنبى ﷺ أو الصالح استغاثة به ، أو لم يكن ، فهل يعرف أن أحدا من العلماء قال : إنه يجوز التوسل إلى اللّه بكل نبى وصالح ؟ فقد أفتى الشيخ عز الدين

---

(١) الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠/ ١٦٢ عن عبادة بن الصامت وقال: « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث » ، وأحمد ٥/ ٣١٧ ولكن بغير هذا السياق .

ابن عبد السلام فى فتاويه المشهورة : أنه لا يجوز التوسل إلى اللّه تعالى إلا بالنبى ﷺ إن صح الحديث فيه ، فهل قال أحد خلاف ما أفتى به الشيخ المذكور ؟

وبتقدير أن يكون فى المسألة خلاف ، فمن قال : لا يتوسل بسائر الأنبياء والصالحين ، كما أفتى الشيخ عز الدين ؟ هل يكفر كما كفره هذا القائل ؟ ويكون ما أفتى به الشيخ كفراً، بل نفس التوسل به لو قال قائل : لا يتوسل به ،/ ولا يستغاث به ، إلا فى حياته وحضوره ، لا ١/١٠٣
فى موته ومغيبه ، هل يكون ذلك كفراً ؟ أو يكون تنقصا ؟

ولو قال : ما لا يقدر عليه إلا اللّه تعالى لا يستغاث فيه إلا باللّه ، أى : لا يطلب إلا من اللّه تعالى هل يكون كفراً ، أو يكون حقا ؟ وإذا نفى الرسول ﷺ عن نفسه أمراً من الأمور لكونه من خصائص الربوبية ، هل يحرم عليه أن ينفيه عنه أم يجب ، أم يجوز نفيه؟ أفتونا ـ رحمكم اللّه ـ بجواب شاف كاف ، موفقين مثابين ـ إن شاء اللّه تعالى .

الجواب :

الحمد للّه رب العالمين . لم يقل أحد من علماء المسلمين : إنه يستغاث بشىء من المخلوقات ، فى كل ما يستغاث فيه باللّه تعالى ، لا بنبى ، ولا بملك ، ولا بصالح ، ولا غير ذلك ، بل هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، أنه لا يجوز إطلاقه .

ولم يقل أحد : إن التوسل بنبى ، هو استغاثة به ، بل العامة الذين يتوسلون فى أدعيتهم بأمور ، كقول أحدهم : أتوسل إليك بحق الشيخ فلان ، أو بحرمته ، أو أتوسل إليك باللوح والقلم ، أو بالكعبة ، أو غير ذلك ، مما يقولونه فى أدعيتهم ، يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور ، فإن المستغيث بالنبى ﷺ طالب منه وسائل له ، والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يُسأل ، وإنما يُطلب به ، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به .

والاستغاثة طلب الغوث ، وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار طلب النصر ، والاستعانة طلب العون ، والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه / منها ، كما قال تعالى : ١/١٠٤
﴿**وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**﴾ [الأنفال : ٧٢] ، وكما قال : ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**﴾ [القصص : ١٥] ، وكما قال تعالى : ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾ [المائدة : ٢] .

وأمَّا ما لا يقدر عليه إلا الله ، فلا يطلب إلا من اللّه ؛ ولهذا كان المسلمون لا يستغيثون بالنبى ﷺ ويستسقون به ، ويتوسلون به ، كما فى صحيح البخارى : أن عمر بن الخطاب ـ رضى اللّه عنه ـ استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا إذا أَجْدَبْنَا نتوسل إليك

بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون [1] .

وفى سنن أبى داود : أن رجلاً قال للنبى ﷺ : إنا نستشفع باللّه عليك ، ونستشفع بك على اللّه ، فقال : « شأن اللّه أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه» [2] . فأقره على قوله : نستشفع بك على اللّه ، وأنكر عليه قوله : نستشفع باللّه عليك .

وقد اتفق المسلمون على أن نبينا شفيع يوم القيامة ، وأن الخلق يطلبون منه الشفاعة ، لكن عند أهل السنة أنه يشفع فى أهل الكبائر ، وأما عند الوعيدية فإنما يشفع فى زيادة الثواب .

وقول القائل : إن من توسل إلى اللّه بنبى ، فقال : أتوسل إليك برسولك ، فقد استغاث برسوله حقيقة ، فى لغة العرب وجميع الأمم ، قد كذب عليهم ، فما يعرف هذا فى لغة أحد من بنى آدم ، بل الجميع يعلمون أن المستغاث مسؤول به مدعو ، ويفرقون بين المسؤول والمسؤول به ، سواء استغاث بالخالق / أو بالمخلوق ، فإنه يجوز أن يستغاث ١/١٠٥
بالمخلوق فيما يقدر على النصر فيه ، والنبى ﷺ أفضل مخلوق يستغاث به فى مثل ذلك .

ولو قال قائل لمن يستغيث به : أسألك بفلان ، أو بحق فلان ، لم يقل أحد : إنه استغاث بما توسل به ، بل إنما استغاث بمن دعا ، وسأله ؛ ولهذا قال المصنفون فى شرح أسماء اللّه الحسنى : إن المغيث بمعنى المجيب ، لكن الإغاثة أخص بالأفعال ، والإجابة أخص بالأقوال .

والتوسل إلى اللّه بغير نبينا ﷺ ـ سواء سُمِّىَ أو لم يُسَمَّ ـ لا نعلم أحداً من السلف فعله ، ولا روى فيه أثراً ، ولا نعلم فيه إلا ما أفتى به الشيخ من المنع ، وأما التوسل بالنبى ﷺ ، ففيه حديث فى السنن ، رواه النسائى والترمذى وغيرهما : أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، إنى أصبت فى بصرى فادع اللّه لى ، فقال له النبى ﷺ: « توضأ وصلِّ ركعتين ، ثم قل : اللّهم أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ، يا محمد ، إنى أتَشَفَّع بك فى ردّ بَصَرى . اللّهم شَفِّع نبيك فى » [3] ، وقال : « فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك » فرد اللّه بصره . فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ التوسل به .

وللناس فى معنى هذا قولان :

---

(١) البخارى فى الاستسقاء (١٠١٠) عن أنس رضى الله عنه .

(٢) أبو داود فى السنة (٤٧٢٦) ، وضعفه الألبانى .

(٣) الترمذى فى الدعوات (٣٥٧٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٤٩٤/١) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥) كلهم عن عثمان بن حنيف.

أحدهما : أن هذا التوسل هو الذى ذكر عمر بن الخطاب ـ رضى اللّه عنه ـ لما قاله: كنا إذا أجْدَبْنَا نتوسل بنبينا إليك فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا [1] ، فقد ذكر عمر ـ رضى الله عنه ـ :أنهم كانوا يتوسلون به فى حياته فى الاستسقاء ، ثم توسلوا بعمه العباس بعد موته ، وتوسلهم / به استسقاؤهم به ، بحيث يدعو ويدعون معه ، فيكون هو ١/١٠٦
وسيلتهم إلى اللّه ، وهذا لم يفعله الصحابة بعد موته ولا فى مغيبه ، والنبى ﷺ كان فى مثل هذا شافعاً لهم ، داعيا لهم ؛ ولهذا قال فى حديث الأعمى : اللّهم فشفعه في ، فعلم أن النبى ﷺ شفع له ، فسأل اللّه أن يشفعه فيه .

والثانى : أن التوسل يكون فى حياته ، وبعد موته ، وفى مغيبه وحضرته ، ولم يقل أحد : إن من قال بالقول الأول فقد كفر ، ولا وجه لتكفيره ، فإن هذه مسألة خفية ، ليست أدلتها جلية ظاهرة ، والكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين ضرورة ، أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ، ونحو ذلك . واختلاف الناس فيما يشرع من الدعاء وما لا يشرع ، كاختلافهم : هل تشرع الصلاة عليه عند الذبح ؟ وليس هو من مسائل السب عند أحد من المسلمين .

وأما من قال : إن من نفى التومل الذى سماه استغاثة بغيره كفر ، وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين وأمثاله ، فأظهر من أن يحتاج إلى جواب ، بل المُكَفِّر بمثل هذه الأمور ، يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله ، من المفترين على الدين ، لا سيما مع قول النبى ﷺ : « من قال لأخيه : كافر فقد باء بها أحدهما » [2] .

وأما من قال : ما لا يقدر عليه إلا اللّه لا يستغاث فيه إلا به ، فقد قال الحق ، بل لو قال كما قال أبو يزيد : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وكما قال الشيخ أبو عبد اللّه القرشى : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون لكان قد أحسن ، فإن مطلق هذا الكلام يفهم الاستغاثة / المطلقة ، كما قال النبى ﷺ لابن ١/١٠٧
عباس : « إذا سألت فاسأل اللّه ، وإذا استعنت فاستعن باللّه » [3] .

وإذا نفى الرسول عن نفسه أمراً كان هو الصادق المصدوق فى ذلك ، كما هو الصادق المصدوق فى كل ما يخبر به ،من نفى ، وإثبات ، وعلينا أن نصدقه فى كل ما أخبر به من

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٠ .

(٢) البخارى فى الأدب (٦١٠٤) ، ومسلم فى الإيمان (٦٠/١١١) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦٣٧) ، ومالك فى الكلام ٢/ ٨٩٤ (١) ، وأحمد ٢/ ١٨ ، ٤٤ ، كلهم عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما .

(٣) سبق تخريجه ص ٥٦ .

نفى وإثبات ، ومن رد خبره تعظيما له ، أشبه النصارى ، الذين كذبوا المسيح فى إخباره عن نفسه بالعبودية ، تعظيما له ، ويجوز لنا أن ننفى ما نفاه ، وليس لأحد أن يقابل نفيه بنقيض ذلك البتة ، والله أعلم .

obeikandl.com

/ وسئل شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية ـ رضى الله عنه : ١/١٠٨

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين ، وفقهم اللّه لطاعته ، فيمن يقول : لا يستغاث برسول اللّه ﷺ ، هل يحرم عليه هذا القول ، وهل هو كفر أم لا ؟ وإن استدل بآيات من كتاب اللّه وأحاديث رسوله ﷺ هل ينفعه دليله أم لا ؟ وإذا قام الدليل من الكتاب والسنة فما يجب على من يخالف ذلك ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب :

الحمد للّه ، قد ثبت بالسنة المستفيضة ، بل المتواترة ، واتفاق الأمة : أن نبينا ﷺ الشافع المشفع ، وأنه يشفع فى الخلائق يوم القيامة وأن الناس يستشفعون به ، يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم وأنه يشفع لهم .

ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع فى أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد فى النار من أهل التوحيد أحد .

وأما الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، ولم ينكروا شفاعته للمؤمنين ، وهؤلاء مبتدعة ضُلال ، وفى تكفيرهم نزاع وتفصيل .

/ وأما من أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع فهو كافر بعد قيام الحجة ، وسواء سمى هذا المعنى استغاثة أو لم يسمه ؟ ١/١٠٩

وأما من أقر بشفاعته وأنكر ما كان الصحابة يفعلونه من التوسل به والاستشفاع به ، كما رواه البخارى فى صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون (١) . وفى سنن أبى داود وغيره أن أعرابيا قال للنبى ﷺ : جهدت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع اللّه لنا ، فإنا نستشفع بك على اللّه ونستشفع باللّه عليك . فسبح رسول اللّه ﷺ حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال : « ويحك ، إن اللّه لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن اللّه أعظم من ذلك » (٢) ، وذكر تمام الحديث فأنكر قوله : نستشفع باللّه عليك ، ولم ينكر قوله : نستشفع بك على اللّه ، بل أقره عليه ، فعلم جوازه . فمن أنكر هذا فهو ضال مخطئ مبتدع ، وفى تكفيره نزاع وتفصيل .

وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ٥٦ ، ٨٠ .

ولكن قال : لا يدعى إلا اللّه وأن الأمور التى لا يقدر عليها إلا اللّه لا تطلب إلا منه ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وإنزال المطر ، وإنبات النبات ، ونحو ذلك ـ فهذا مصيب فى ذلك ، بل هذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضاً . كما قال الله تعالى : ﴿**وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّه**﴾ [آل عمران : ١٣٥] ، وقال : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء** ﴾ [القصص : ٥٦] ، وكما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء / وَالأَرْضِ** ﴾ ؟ [فاطر:٣] ، وكما قال تعالى : ١/١١٠
﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾[آل عمران:١٢٦]، وقال : ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠].

فالمعانى الثابتة بالكتاب والسنة يجب إثباتها ، والمعانى المنفية بالكتاب والسنة يجب نفيها، والعبارة الدالة على المعانى نفياً وإثباتاً إن وجدت فى كلام الله ورسوله ، وجب إقرارها ، وإن وجدت فى كلام أحد وظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه ، وإلا رجع فيه إليه .

وقد يكون فى كلام اللّه ورسوله عبارة لها معنى صحيح ، لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد اللّه ورسوله ، فهذا يرد عليه فهمه . كما روى الطبرانى فى معجمه الكبير : أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول اللّه ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث باللّه » (١) ، فهذا إنما أراد به النبى ﷺ المعنى الثانى، وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا اللّه ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به ، كما فى صحيح البخارى ، عن ابن عمر قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبى ﷺ يستسقى، فما ينزل حتى يجيش له كل ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل ! (٢)

وهو قول أبى طالب ؛ ولهذا قال العلماء المصنفون فى أسماء اللّه تعالى : يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا اللّه ، وأن كل / غوث فمن عنده ، وإن كان جعل ذلك على يدى غيره فالحقيقة له سبحانه وتعالى ولغيره مجاز . ١/١١١

قالوا : من أسمائه تعالى المغيث والغياث ، وجاء ذكر المغيث فى حديث أبى هريرة ، قالوا : واجتمعت الأمة على ذلك .

وقال أبو عبد اللّه الحليمى : الغياث هو المغيث ، وأكثر ما يقال : غياث المستغيثين ،

(١) سبق تخريجه ص ٧٨ .

(٢) البخارى فى الاستسقاء (١٠٠٩) .

ومعناه المدرك عباده فى الشدائد إذا دعوه ، ومجيبهم ومخلصهم ، وفى خبر الاستسقاء فى الصحيحين : « اللهم أغثنا ، اللّهم أغثنا » (١) . يقال : أغاثه إغاثة وغياثا وغوثا ، وهذا الاسم فى معنى المجيب والمستجيب ، قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُم ﴾ [الأنفال : ٩] ، إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال ، والاستجابة أحق بالأقوال ، وقد يقع كل منهما موقع الآخر .

قالوا : الفرق بين المستغيث والداعى : أن المستغيث ينادى بالغوث ، والداعى ينادى بالمدعو والمغيث . وهذا فيه نظر ، فإن من صيغة الاستغاثة يالله للمسلمين ، وقد روى عن معروف الكرخى أنه كان يكثر أن يقول : واغوثاه ، ويقول : إنى سمعت الله يقول : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُم ﴾ ، وفى الدعاء المأثور : « يا حى يا قيوم ، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك » (٢) .

والاستغاثة برحمته استغاثة به فى الحقيقة ، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به فى الحقيقة ، وكما أن القسم بصفاته قسم به فى الحقيقة ، ففى الحديث : « أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق » (٣) ، وفيه « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (٤) .

---

(١) البخارى فى الاستسقاء (١٠١٤) ، ومسلم فى صلاة الاستسقاء (٨/٨٩٧) كلاهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٨٣ وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط من طريق سلمة بن حرب بن زياد عن أبى مدرك عن أنس ، وقد ذكر الذهبى سلمة فى الميزان فقال : مجهول كشيخه أبى مدرك وقد وثقه ابن حبان وذكر له هذا الحديث فى ترجمته ، وفى الميزان : أبو مدرك ، قال الدارقطنى : متروك فلا أدرى هو أبو مدرك هذا أو غيره ، وبقية رجاله ثقات » ، وانظر : ابن حبان فى الثقات ٦/ ٣٩٨ .

(٣) مسلم فى الذكر والدعاء (٨/ ٢٧٠٨/ ٥٤) ، والترمذى فى الدعوات (٣٤٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، وابن ماجه فى الطب (٣٥٤٧) ، ومالك فى الاستئذان ٢/ ٩٨٧ (٣٤) ، وأحمد ٦/ ٣٧٧ كلهم عن خولة بنت حكيم رضى الله عنها . وكذا مسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٩) ، وأبو داود فى الطب (٣٨٩٩) ، وابن ماجه فى الطب (٣٥١٨) ، ومالك فى الشعر ٢/ ٩٥١ (١١) ، وأحمد ٢/ ٢٩٠ كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٤) مسلم فى الصلاة (٤٨٦/ ٢٢) ، وأبو داود فى الصلاة (٧٨٩) ، والنسائى فى التطبيق (١١٠٠) ، وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٤١) كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وكذا أبو داود فى الصلاة (٨٧٩) ، والترمذي فى الدعوات (٣٤٩٣) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى فى التطبيق (١١٣٠) ، وأحمد ٦/ ٥٨ ، ٢٠١ كلهم عن عائشة رضى الله عنها .

١/١١٢ / ولهذا استدل الأئمة فيما استدلوا على أن كلام اللّه غير مخلوق بقوله : « أعوذ بكلمات اللّه التامة » قالوا : والاستعاذة لا تصلح بالمخلوق .

وكذلك القَسَم ، قد ثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ قال : « من كان حالفا فليحلف باللّه أو ليصمت » (١) ، وفى لفظ : « من حلف بغير اللّه فقد أشرك » رواه الترمذى وصححه (٢) . ثم قد ثبت فى الصحيح : الحلف بـ « عزة اللّه » (٣) ، و « لعمر اللّه » (٤) ، ونحو ذلك مما اتفق المسلمون على أنه ليس من الحلف بغير اللّه الذى نهى عنه، والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم ، ومن نازع فى هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به ، وإما مخطئ ضال .

وأما بالمعنى الذى نفاه رسول اللّه ﷺ : فهو أيضاً مما يجب نفيها ، ومن أثبت لغير اللّه ما لا يكون إلا للّه فهو أيضاً كافر إذا قامت عليه الحجة التى يكفر تاركها .

ومن هذا الباب قول أبى يزيد البسطامى: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وقول الشيخ أبى عبد اللّه القرشى المشهور بالديار المصرية : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون .

وفى دعاء موسى ـ عليه السلام ـ : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (٥) ، ولما كان هذا المعنى هو المفهوم منها عند الإطلاق وكان مختصاً باللّه صح إطلاق نفيه عما سواه ؛ ولهذا لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين أنه جوَّز مطلق الاستغاثة بغير اللّه ، ولا أنكرعلى من نفى مطلق الاستغاثة عن غير اللّه .

١/١١٣ / وكذلك الاستغاثة أيضا ،فيها ما لا يصلح إلا لله ، وهى المشار إليها بقوله : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة :٥] ، فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا اللّه . وقد

---

(١) البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٤٦) ، ومسلم فى الأيمان (٣/١٦٤٦) ، كلاهما عن ابن عمر رضى اللّه عنهما .

(٢) الترمذى فى النذور والأيمان (١٥٣٥) وقال : « هذا حديث حسن » ، وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٥١) كلاهما عن ابن عمر رضى اللّه عنهما .

(٣) البخارى فى الأيمان والنذور معلقاً (الفتح ١١/٥٤٥) ، وفى التوحيد (٧٣٨٤) عن أنس .

(٤) البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٦٢) عن عائشة رضى اللّه عنها .

(٥) الهيثمى فى المجمع ١٠/١٨٦ وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم » . واللفظ مختلف .

يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه ، وكذلك الاستنصار ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ [الأنفال : ٧٢] ، والنصر المطلق هو خلق ما به يغلب العدو ولا يقدر عليه إلا اللّه .

ومن خالف ما ثبت فى الكتاب والسنة ، فإنه يكون إما كافراً ، وإما فاسقاً ، وإما عاصيا ، إلا أن يكون مؤمنا مجتهداً مخطئًا فيثاب على اجتهاده ، ويغفر له خطؤه ، وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذى تقوم عليه به الحجة ، فإن اللّه يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء : ١٥] . وأما إذا قامت عليه الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالفها: فإنه يعاقب بحسب ذلك ، إما بالقتل ، وإما بدونه . واللّه أعلم .

obeikandl.com

١/١١٤ / وقال شيخ الإسلام :

فصل

سَمَّى اللّه آلهتهم التى عبدوها من دونه شفعاء ، كما سماها شركاء فى غير موضع ، فقال فى يونس : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الآية ١٨] ، وقال : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ . قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر :٤٣ ، ٤٤] ، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ . وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ ﴾ [الروم : ١٢ ، ١٣] .

وجمع بين الشرك والشفاعة فى قوله : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٢ ، ٢٣] . فهذه الأربعة هى التى يمكن أن يكون لهم بها تعلق ، الأول : ملك شىء ولو قل ، الثانى : شركهم فى شىء من الملك . فلا ملك ولا شركة ولا معاونة يصير بها نداً . فإذا انتفت الثلاثة بقيت الشفاعة فعلقها بالمشيئة.

١/١١٥ / وقال : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلا﴾ الآيتين [الإسراء:٥٦]، وقال فى اتخاذهم قربانا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، وقال : ﴿ فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف : ٢٨] .

/ وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله : ١/١١٦

فصل

فى الشفاعة المنفية فى القرآن ، كقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة : ٤٨] ، وقوله تعالى : ﴿ولا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة : ١٢٣] ، وقوله : ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، وقوله : ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ . وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠ ، ١٠١] ، وقوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، وقوله : ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف : ٥٣] ، وأمثال ذلك .

واحتج بكثير منه الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر ؛ إذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب ، أو أن يخرج من النار من يدخلها ، ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب فى زيادة الثواب .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة : إثبات الشفاعة لأهل الكبائر، والقول بأنه يخرج من النار مَنْ فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأيضاً ، فالأحاديث المستفيضة عن النبى ﷺ فى الشفاعة : فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم ، وفيهم المؤمن والكافر ، وهذا فيه / نوع شفاعة للكفار . وأيضاً ، ففى ١/١١٧
الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال : يا رسول الله ، هل نفعتَ أبا طالب بشىء ؟ فإنه كان يَحُوطك ويغضب لك . قال : « نعم هو فى ضَحْضاح (١) من نار ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار » (٢) ، وعن عبد الله بن الحارث قال : سمعت العباس يقول : قلت : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال: « نعم ، وجدته فى غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح » (٣) .

---

(١) الضَّحضاح فى الأصل : ما رق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين ، فاستعاره للنار . انظر : النهاية فى غريب الحديث ٣/ ٧٥ .

(٢) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٨٣) وفى الأدب (٦٢٠٨) ، ومسلم فى الإيمان (٢٠٩/ ٣٥٧) ، وأحمد ١/ ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ .

(٣) مسلم فى الإيمان (٢٠٩/ ٣٥٨) .

وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى اللّه عنه ــ أن رسول اللّه ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب ، فقال : « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار ، يبلغ كعبيه ، يغلى منه دماغه » (١) .

فهذا نص صحيح صريح لشفاعته فى بعض الكفار أن يخفف عنه العذاب ، بل فى أن يجعل أهون أهل النار عذاباً ، كما فى الصحيح أيضاً عن ابن عباس : أن رسول اللّه ﷺ قال : « أهون أهل النار عذابا أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه » (٢) .

وعن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن أدنى أهل النار عذاباً منتعل بنعلين من نار ، يغلى دماغه من حرارة نعليه » (٣) ، وعن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل يوضع فى أخمص قدميه جمرتان ، يغلى منهما دماغه » (٤) ، وعنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار ، يغلى منهما دماغه ، كما يغلى المِرْجَل (٥) ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » (٦) .

١/١١٨ / وهذا السؤال الثانى يضعف جواب من تأول نفى الشفاعة على الشفاعة للكفار ، وإن الظالمين هم الكافرون . . . (٧) .

فيقال : الشفاعة المنفية هى الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق ، وهى أن يشفع الشفيع إلى غيره ابتداء فيقبل شفاعته ، فأما إذا أذن له فى أن يشفع فشفع ، لم يكن مستقلاً بالشفاعة ، بل يكون مطيعاً له أى تابعاً له فى الشفاعة ، وتكون شفاعته مقبولة ويكون الأمر كله للآمر المسؤول .

وقد ثبت بنص القرآن فى غير آية : أن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه . كما قال تعالى: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقال: ﴿ **وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ**

---

(١) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٨٥) ، ومسلم فى الإيمان (٢١٠/ ٣٦٠) ، وأحمد ٣/ ٥٩ . .

(٢) مسلم فى الإيمان (٢١٢/ ٣٦٢) ، وأحمد ١/ ٢٩٥ .

(٣) مسلم فى الإيمان (٢١١/ ٣٦١) ، وأحمد ٣/ ٢٧ .

(٤) البخارى فى الرقاق (٦٥٦١) ، ومسلم فى الإيمان (٢١٣/ ٣٦٣) ، والترمذى فى صفة جهنم (٢٦٠٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وأحمد ٤/ ٢٧١ ، ٢٧٤ .

(٥) المِرْجَل : الإناء الذى يُغلَى فيه الماء . انظر : النهاية فى غريب الحديث ٤/ ٣١٥ .

(٦) مسلم فى الإيمان (٢١٣/ ٣٦٤) .

(٧) بياض بالأصل .

أذنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٣] ، وقال: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وأمثال ذلك.

والذى يبين أن هذه هى الشفاعة المنفية : أنه قال : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ [السجدة : ٤] ، فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولىّ ولا شفيع.

وأما نفى الشفاعة بدون إذنه ، فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه ، كما أن الولاية التى بإذنه ليست من دونه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة : ٥٥ ، ٥٦] .

وأيضاً ، فقد قال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ / شَيْئًا وَلا ١/١١٩
يَعْقِلُونَ . قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الزمر : ٤٣ ، ٤٤] ، فذم الذين اتخذوا من دون اللّه شفعاء وأخبر أن للّه الشفاعة جميعا ، فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره ؛ إذ لا يشفع أحد إلا بإذنه ، وتلك فهى له .

وقد قال : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] .

ومما يوضح ذلك :أنه نفى يومئذ الخلة بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ومعلوم أنه إنما نفى الخلة المعروفة ، ونفعها المعروف كما ينفع الصديق الصديق فى الدنيا ، كما قال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ . ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ .يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[الانفطار: ١٧ــ ١٩]، وقال : ﴿لِيُنذِرَ (١) يَوْمَ التَّلاقِ . يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٥ ، ١٦] ، لم يَنْف أن يكون فى الآخرة خلة نافعة بإذنه،فإنه قد قال: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ. يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ الآيات [الزخرف: ٦٧ ،٦٨] ،وقد قال النبى ﷺ : « يقول اللّه تعالى : حَقَّتْ

(١) فى المطبوعة : « لتنذر » ، والصواب ما أثبتناه .

مَحبَّتِي لِلْمُتحَابِينَ فِى» (١) ، ويقول اللّهُ تعالى : « أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِى ؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِى ظِلِّى يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلِّى » (٢) .

فتعين أن الأمر كله عائد إلى تحقيق التوحيد ، وأنه لا يُنفع أحد ولا يضر إلا بإذن اللّه، وأنه لا يجوز أن يُعبد أحد غير اللّه ، ولا يُستعان به من دون اللّه ، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله للّه ، ويتبرأ كل مدع من / دعواه الباطلة ، فلا يبقى من ١/١٢٠
يدعى لنفسه معه شركا فى ربوبيته ، أو إلهيته ، ولا من يدعى ذلك لغيره . بخلاف الدنيا ، فإنه وإن لم يكن رب ولا إله إلا هو فقد اتُخذ غيره ربا وإلها ، وادعى ذلك مدعون .

وفى الدنيا يشفع الشافع عند غيره ،وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له فى الشفاعة ، ويكون خليله ، فيعينه ويفتدى نفسه من الشر ، فقد ينتفع بالنفوس والأموال فى الدنيا ، النفوس ينتفع بها تارة بالاستقلال ، وتارة بالإعانة وهى الشفاعة ، والأموال بالفداء ، فنفى اللّه هذه الأقسام الثلاثة . قال تعالى : ﴿**لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾ [البقرة : ٤٨] ، وقال : ﴿ **لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ**﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، كما قال : ﴿**لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا**﴾ [لقمان : ٣٣] ، فهذا هذا واللّه أعلم .

وعاد ما نفاه اللّه من الشفاعة إلى تحقيق أصلى الإيمان ، وهى الإيمان باللّه وباليوم الآخر ، التوحيد والمعاد ، كما قرن بينهما فى مواضع كثيرة ، كقوله : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ [البقرة : ٨] ، وقوله : ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة : ١٥٦] ، وقوله : ﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [لقمان : ٢٨] ، وقوله : ﴿**وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [البقرة : ٢٨] . وأمثال ذلك .

---

(١) مالك فى الشعر ٢/ ٩٥٤(١٦) ، وأحمد ٥/ ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، والحاكم فى المستدرك ٤/ ١٦٩ وقال : « إسناده صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى ، كلهم عن معاذ بن جبل رضى اللّه عنه .

(٢) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٦٦/ ٣٧) ، والدارمى فى الرقاق ٢/ ٣١٢ ، ومالك فى الشعر ٢/ ٩٥٢ (١٣)، وأحمد ٢/ ٣٣٨ كلهم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه .

/ **سئل شيخ الإسلام ـ قدس اللّه روحه** : عن رجلين تناظرا ، فقال ١/١٢١
أحدهما : لابد لنا من واسطة بيننا وبين اللّه ، فإنا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك .

فأجاب :

الحمد للّه رب العالمين . إن أراد بذلك أنه لابد من واسطة تبلغنا أمر اللّه ،فهذا حق . فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه اللّه ويرضاه ، وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعده لأوليائه من كرامته ، وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقه اللّه تعالى من أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسل ، الذين أرسلهم اللّه إلى عباده .

فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زُلفى ، ويرفع درجاتهم، ويكرمهم فى الدنيا والآخرة . وأما المخالفون للرسل ، فإنهم ملعونون ، وهم عن ربهم ضالون محجوبون ، قال تعالى : ﴿**يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [الأعراف : ٣٥ ، ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ . وَمَنْ / أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً** ١/١٢٢
ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣ ــ ١٢٦] ، قال ابن عباس : تكفل اللّه لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿**كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ**﴾ [الملك : ٨ ، ٩]، وقال تعالى : ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [الزمر : ٧١] ، وقال تعالى : ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ [الأنعام : ٤٨ ، ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا**

أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا . رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء :١٦٣ ـ ١٦٥]. ومثل هذا فى القرآن كثير .

وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، فإنهم يثبتون الوسائط بين اللّه وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلغوا عن اللّه / أمره وخبره . قال ١/١٢٣
تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] ، ومن أنكر هذه الوسائط فهو كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ المِلَل .

والسور التى أنزلها اللّه بمكة مثل : الأنعام ، والأعراف ، وذوات : ﴿الر﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿طس﴾ ونحو ذلك ، هى متضمنة لأصول الدين ، كالإيمان باللّه ورسله واليوم الآخر .

وقد قص اللّه قصص الكفار الذين كذبوا الرسل ، وكيف أهلكهم ، ونصر رسله ، والذين آمنوا ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] ، وقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] .

فهذه الوسائط تُطاع وتُتَّبَع ويقتدى بها . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٦٤] وقال تعالى: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقال : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وَقَالَ تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وإن أراد بالواسطة : أنه لابد من واسطة فى جلب المنافع ، ودفع المضار ، مثل : أن يكون واسطة فى رزق العباد ، ونصرهم ، وهداهم ، يسألونه ذلك ، ويرجون إليه فيه ، فهذا من أعظم الشرك ، الذى كفر اللّه به المشركين ، حيث اتخذوا من دون اللّه أولياء وشفعاء ، يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار .

لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها، حتى قال: ﴿ اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَوَات / وَالأَرْضَ وَمَا ١/١٢٤
بَيْنَهُمَا في ستَّة أَيَّامٍ ثُمَّ استَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونه من وَلِيٍّ وَلا شَفيـــــع أَفَلا تَتَذَكَّرُون ﴾ [السجدة: ٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ به الَّذين يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْس لَهُم مِّن دُونه وَلِيٌّ وَلا شَفيع ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذين زَعَمْتُم مِّن دُونه فَلا يَمْلكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْويلاً . أُولَٰئكَ الَّذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] ، وقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُم مِّن دُون اللَّه لا يَمْلكُونَ مثْقَالَ ذَرَّة في السَّمَوَات وَلا في الأَرْض وَمَا لَهُمْ فيهمَا من شرْك وَمَا لَهُ منْهُم مِّن ظَهير . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عندَهُ إِلاَّ لمَنْ أَذنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٢، ٢٣] .

وقالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح ، والعزير ، والملائكة : فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا ، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لبَشَرٍ أَن يُؤْتيَهُ اللَّهُ الْكتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عبَاداً لِّي من دُون اللَّه وَلَكن كُونُوا ربَّانيِّينَ بمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكتَابَ وَبمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخذُوا الْمَلائكَةَ وَالنَّبيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بالْكُفْر بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلمُونَ﴾ ؟ [آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] ، فبين سبحانه : أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر .

فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ، ويتوكل عليهم ، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار ، مثل أن يسألهم غفران الذنب ، وهداية القلوب ، وتفريج الكروب ، وسد الفاقات ، فهو كافر بإجماع المسلمين .

وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عبَادٌ مُّكْرَمُونَ . / لا يَسْبقُونَهُ ١/١٢٥
بالْقَوْل وَهُم بأَمْره يَعْملُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْديهمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لمَن ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَته مُشْفقُونَ . وَمَن يَقُلْ منْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونه فَذَلكَ نَجْزيه جَهَنَّمَ كَذَلكَ نَجْزي الظَّالمينَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكفَ الْمَسيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّه وَلا الْمَلائكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكفْ عَنْ عبَادَته وَيَسْتَكْبرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْه جَميعاً ﴾ [النساء : ١٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً . لَقَدْ جئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ منْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخرُّ الْجبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا للرَّحْمَنِ وَلَداً . وَمَا يَنبَغي للرَّحْمَنِ أَن يَتَّخذَ وَلَداً . إِن كُلُّ مَن في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتي الرَّحْمَنِ عَبْداً . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتيه يَوْمَ الْقيَامَة

فَرْدًا ﴾ [مريم : ٨٨ ـ ٩٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٨] ، ومثل هذا كثير فى القرآن . ومن سوى الأنبياء ـ من مشايخ العلم والدين ـ فمن أثبتهم وسائط بين / الرسول وأمته ، يبلغونهم ، ويعلمونهم ، ويؤدبونهم ، ويقتدون بهم، فقد ١/١٢٦
أصاب فى ذلك. وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة، لا يجتمعون على ضلالة، وإن تنازعوا فى شىء ردوه إلى الله والرسول، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق، بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ، وقد قال النبى ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء ، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر »(١) .

وإن أثبتم وسائط بين الله وبين خلقه ـ كالحجاب الذين بين الملك ورعيته ـ بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه ، فالله إنما يهدى عباده ويرزقهم بتوسطهم ، فالخلق يسألونهم ، وهم يسألون الله ، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس ، لقربهم منهم ، والناس يسألونهم ، أدبا منهم أن يباشروا سؤال الملك ، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك ؛ لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج . فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه ، فهو كافر مشرك ، يجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . وهؤلاء مشبهون لله ، شبهوا المخلوق بالخالق ، وجعلوا لله أندادا . وفى القرآن من الرد على هؤلاء ، ما لم تتسع له هذه الفتوى .

فإن الوسائط التى بين الملوك وبين الناس ، يكونون على أحد وجوه ثلاثة :

---

(١) البخارى فى العلم معلقًا (الفتح ١/ ١٦٠) ، وأبو داود فى العلم (٣٦٤١) ، والترمذى فى العلم (٢٦٨٢) وقال : « ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندى بمتصل . . . » ، وابن ماجه فى المقدمة (٢٢٣) ، وأحمد ٥/ ١٩٦، كلهم عن أبى الدرداء رضى الله عنه .

إما لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه .

/ ومن قال : إن الله لا يعلم أحوال عباده حتى يخبره بتلك بعض الملائكة أو الأنبياء ١/١٢٧
أو غيرهم فهو كافر ، بل هو ـ سبحانه ـ يعلم السر وأخفى ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير ﴾ [الشورى:١١] . يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين .

الوجه الثانى : أن يكون الملك عاجزًا عن تدبير رعيته ، ودفع أعدائه ـ إلا بأعوان يعينونه ـ فلابد له من أنصار وأعوان ، لذله وعجزه . والله ـ سبحانه ـ ليس له ظهير ، ولا ولى من الذل ، قال تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ** ﴾ [سبأ : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** ﴾ [الإسراء : ١١١] .

وَكُلُّ مَا فى الوجود من الأسباب فهو خالقه ، وربه ومليكه ، فهو الغنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ،بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم وهم ـ فى الحقيقة ـ شركاؤهم فى الملك .

والله ـ تعالى ـ ليس له شريك فى الملك ، بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

والوجه الثالث : أن يكون الملك ليس مريدًا لنفع رعيته، والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمحرك يحركه من خارج . فإذا خاطب الملك من ينصحه ، ويعظمه ، أو من يدل عليه ، بحيث يكون يرجوه ويخافه ، تحركت إرادة الملك / وهمته ، فى قضاء حوائج رعيته ، إما ١/١٢٨
لما حصل فى قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير ، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المدل عليه .

والله ـ تعالى ـ هو رب كل شىء ومليكه ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته ، فما شاء كانَ وما لم يشأ لم يكن ، وهو إذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض ، فجعل هذا يحسن إلى هذا ويدعو له ويشفع فيه ونحو ذلك ، فهو الذى خلق ذلك كله ، وهو الذى خلق فى قلب هذا المحسن الداعى الشافع إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة، ولا يجوز أن يكون فى الوجود من يكرهه على خلاف مراده، أو يعلمه ما لم يكن يعلم ، أو من يرجوه الرب ويخافه .

ولهذا قال النبى ﷺ : « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، فإنه لا مكره له » (١) . والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه ، كما قال : ﴿ **مَن ذَا الَّذي يَشْفَعُ عندَهُ إلاَّ بإذْنه** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لمَنِ ارْتَضَىٰ** ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّه لا يَمْلكُونَ مثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّمَوَات وَلا في الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فيهمَا من شرْكٍ وَمَا لَهُ منْهُم مِّن ظَهيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عندَهُ إلاَّ لمَنْ أَذنَ لَهُ** ﴾ [سبأ : ٢٢ ، ٢٣] .

فَبَيَّنَ أنَّ كُلَّ من دعى من دونه ليس له ملك ولا شرك فى الملك ، ولا هو ظهير ، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له .

وهذا بخلاف الملوك ، فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك ، وقد يكون شريكًا لهم فى الملك ، وقد يكون مظاهرًا لهم معاونا لهم على ملكهم ، وهؤلاء / يشفعون عند الملوك ١/١٢٩
بغير إذن الملوك هم وغيرهم ، والملك يقبل شفاعتهم ، تارة بحاجته إليهم ، وتارة لخوفه منهم ، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافأتهم ولإنعامهم عليه ، حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك ، فإنه محتاج إلى الزوجة وإلى الولد ، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك ، ويقبل شفاعة مملوكه ، فإذا لم يقبل شفاعته ، يخاف ألا يطيعه ، أو أن يسعى فى ضرره ، وشفاعة العباد بعضهم عند بعض ، كلها من هذا الجنس ، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة .

والله ـ تعالى ـ لا يرجو أحدًا ، ولا يخافه ، ولا يحتاج إلى أحد بل هو الغنى ، قال تعالى : ﴿ **أَلا إنَّ للَّه مَن في السَّمَوَات وَمَن في الأَرْضِ وَمَا يَتَّبعُ الَّذينَ يَدْعُونَ من دُونِ اللَّه شُرَكَاءَ إن يَتَّبعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنيُّ لَهُ مَا في السَّمَوَات وَمَا في الأَرْضِ** ﴾ [يونس : ٦٦ ـ ٦٨] .

والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة ، قال تعالى : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّه مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عندَ اللَّه قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بمَا لا يَعْلَمُ في السَّمَوَات وَلا في الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [يونس : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ **فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذينَ اتَّخَذُوا من دُونِ اللَّه قُرْبَانًا آلهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلكَ إفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾ [الأحقاف : ٢٨] .

---

(١) البخارى فى التوحيد (٧٤٧٧) ، ومسلم فى الذكر والدعاء (٨/٢٦٧٩) ، وأبو داود فى الصلاة (١٤٨٣) ، والترمذى فى الدعوات (٣٤٩٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، ومالك فى القرآن ١/ ٢١٣ (٢٨) كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وأخبر عن المشركين أنهم قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣]، وقال تعالى : ﴿ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ / أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ١/١٣٠
وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] . فأخبر أن ما يدعى من دونه لا يملك كشف ضر ولا تحويله ، وأنهم يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه فهو ـ سبحانه ـ قد نفى ما من الملائكة والأنبياء ، إلا من الشفاعة بإذنه ، والشفاعة هى الدعاء .

ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع ، والله قد أمر بذلك ، لكن الداعى الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له فى ذلك ، فلا يشفع شفاعة نهى عنها ، كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : ١١٣ ، ١١٤] ، وقال تعالى فى حق المنافقين : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُم ﴾ [المنافقون : ٦] .

وقد ثبت فى الصحيح : أن الله نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين ، وأخبر أنه لا يغفر لهم[1] ، كما فى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦]، وقوله : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] ، وقد قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] ـ فى الدعاء ـ ومن الاعتداء فى الدعاء : أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله ، مثل : أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم ، أو المغفرة للمشركين ، ونحو ذلك . أو يسأله ما فيه معصية الله ، كإعانته على الكفر والفسوق والعصيان .

/ فالشفيع الذى أذن الله له فى الشفاعة ، شفاعته فى الدعاء الذى ليس فيه عدوان . ١/١٣١

ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يقر عليه فإنهم معصومون أن يقروا على ذلك . كما قال نوح : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [هود : ٤٥] ،

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٧٠، ٤٦٧١) .

قال تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٦ ، ٤٧] .

وكل داع شافع دعا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وشفع : فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ، ومشيئته ، وهو الذى يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة ، فهو الذى خلق السبب والمسبب ، والدعاء من جملة الأسباب التى قدرها الله ـ سبحانه وتعالى .

وإذا كان كذلك : فالالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومَحْو الأسباب أن تكون أسبابا نَقْصٌ فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدْحٌ فى الشرع ، بل العبد يجب أن يكون تَوكُّله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ والله يقدر له من الأسباب ـ من دعاء الخلق وغيرهم ـ ما شاء .

والدعاء مشروع ، أن يدعو الأعلى للأدنى ، والأدنى للأعلى فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبى ﷺ فى الاستسقاء ، ويطلبون منه الدعاء ، بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه ، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ، / ومحمد ﷺ وهو سيد الشفعاء ، وله شفاعات يختص بها ومع هذا ١/١٣٢
فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ ،فإنه من صلى علىّ مرة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد! فمن سأل الله لى الوسيلة حَلت عليه شفاعتى يوم القيامة »(١). وقد قال ﷺ لعمر ـ لما أراد أن يعتمر وودعه ـ : « يا أخى لا تنسنى من دعائك »(٢) .

فالنبى ﷺ قد طلب من أمته أن يدعوا له ، ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم ، بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التى يثابون عليها ، مع أنه ﷺ له مثل أجورهم فى كل ما يعملونه ، فإنه قد صح عنه أنه قال : « من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من

---

(١) مسلم فى الصلاة (٣٨٤/ ١١) ، وأبو داود فى الصلاة (٥٢٣) ، والترمذى فى المناقب (٣٦١٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، والنسائى فى الأذان (٦٧٨) ، وأحمد ٢/ ١٦٨ كلهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

(٢) أبو داود فى الصلاة (١٤٩٨) ، والترمذى فى الدعوات (٣٥٦٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه فى المناسك (٢٨٩٤) ، كلهم عن عمر رضى الله عنه .

الوِزْر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا »[1] ، وهو داعى الأمة إلى كل هدى ، فله مثل أجورهم فى كل ما اتبعوه فيه .

وكذلك إذا صلوا عليه ، فإن الله يصلى على أحدهم عشرًا ، وله مثل أجورهم مع ما يستجيبه من دعائهم له ، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه ، وصار ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه ، وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكًا ، كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثل ذلك »[2]، وفى حديث آخر : « أسرع الدعاء دعوة غائب لغائب »[3] .

/ فالدعاء للغير ينتفع به الداعى ، والمدعو له وإن كان الداعى دون المدعو له ، فدعاء ١/١٣٣
المؤمن لأخيه ينتفع به الداعى والمدعو له . فمن قال لغيره : ادع لى وقصد انتفاعهما جميعًا بذلك كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى ، فهو نبه المسؤول وأشار عليه بما ينفعهما، والمسؤول فعل ما ينفعهما ، بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى ، فيثاب المأمور على فعله ، والآمر أيضًا يثاب مثل ثوابه ؛ لكونه دعا إليه ، لا سيما ومن الأدعية ما يؤمر بها العبد ، كما قال تعالى : ﴿ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [محمد : ١٩] ، فأمره بالاستغفار ، ثم قال : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٤] .

فذكر ـ سبحانه ـ استغفارهم، واستغفار الرسول لهم إذ ذاك مما أمر به الرسول ، حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولم يأمر الله مخلوقًا أن يسأل مخلوقًا شيئًا لم يأمر الله المخلوق به ، بل ما أمر الله العبد أمر إيجاب أو استحباب ففعله هو عبادة لله ، وطاعة وقربة إلى الله ، وصلاح لفاعله وحسنة فيه ، وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله إليه، وإنعامه عليه ، بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان .

والإيمان قول وعمل ، يزيد بالطاعة والحسنات ، وكلما ازداد العبد عملا للخير ، ازداد إيمانه . هذا هو الإنعام الحقيقى المذكور فى قوله : ﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفاتحة: ٧] ، وفى قوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم** ﴾

---

(١) مسلم فى العلم (١٦/٢٦٧٤) ، وأبو داود فى السنة (٤٦٠٩) ، والترمذى فى العلم (٢٦٧٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه فى المقدمة (٢٠٦) ، كلهم عن أبى هريرة .

(٢) مسلم فى الذكر والدعاء (٨٧/٢٧٣٢) ، وأبو داود فى الصلاة (١٥٣٤) كلاهما عن أبى الدرداء رضى الله عنه. وذكره الإمام ابن تيمية بمعناه.

(٣) أبو داود فى الصلاة (١٥٣٥) ، والترمذى فى البر والصلة (١٩٨٠) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ، كلاهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

[النساء : ٦٩] ، بل نعم الدنيا بدون الدين هل هى من نعمه أم لا ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم .

١/١٣٤ / والتحقيق : أنها نعمة من وجه وإن لم تكن نعمة تامة من وجه ، وأما الإنعام بالدين الذى ينبغى طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب ، فهو الخير الذى ينبغى طلبه باتفاق المسلمين ، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة ، إذ عندهم أن الله هو الذى أنعم بفعل الخير . والقدرية عندهم إنما أنعم بالقدرة عليه ، الصالحة للضدين فقط .

والمقصود هنا : أن الله لم يأمر مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً إلا ما كان مصلحة لذلك المخلوق ، إما واجب أو مستحب ، فإنه سبحانه لا يطلب من العبد إلا ذلك ، فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك ؟ بل قد حرم على العبد أن يسأل العبد ماله إلا عند الضرورة .

وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور ، فهذا يثاب على ذلك ، وإن كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لانتفاع المأمور ، فهذا من نفسه أتى ، ومثل هذا السؤال لا يأمر الله به قط ، بل قد نهى عنه ، إذ هذا سؤال محض للمخلوق من غير قصده لنفعه ولا لمصلحته ، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب إليه ، ويأمرنا أن نحسن إلى عباده ، وهذا لم يقصد لا هذا ولا هذا ، فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعائه ، وهو الصلاة ، ولا قصد الإحسان إلى المخلوق الذى هو الزكاة ، وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال ، لكن فرق ما بين ما يؤمر به العبد وما يؤذن له فيه ، ألا ترى أنه قال فى حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب : إنهم « لا يسترقون » (١) . وإن كان الاسترقاء جائزاً . وهذا قد بسطناه فى غير هذا الموضع .

١/١٣٥ والمقصود هنا : أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه ، كالوسائط التى / تكون بين الملوك والرعية ، فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عُبّاد الأوثان كانوا يقولون : إنها تماثيل الأنبياء والصالحين ، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله ، وهو من الشرك الذى أنكره الله على النصارى حيث قال : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة : ٣١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ [البقرة :١٨٦] ، أى فليستجيبوا لى إذا دعوتهم بالأمر والنهى ، وليؤمنوا بى أن أجيب دعاءهم لى بالمسألة والتضرع .

وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ** ﴾ [الشرح : ٧، ٨] ، وقال

---

(١) سبق تخريجه ص ٦١ .

تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاه ﴾ [الإسراء :٦٧] ،وقال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] .

وقد بين الله هذا التوحيد فى كتابه ، وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ،وقال تعالى :﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أى يخوفكم أولياءه ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ،وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧]،وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ / وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ ١/١٣٦
[التوبة : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور : ٥٢] .

فبين أن الطاعة لله ورسوله ، وأما الخشية فلله وحده .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٥٩] ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

وقد كان النبى ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمته ، ويحسم عنهم مواد الشرك ؛ إذ هذا تحقيق قولنا : لا إله إلا الله ، فإن الإله هو الذى تألهه القلوب ؛ لكمال المحبة والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، والرجاء والخوف ، حتى قال لهم : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد » (١) ، وقال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال : « أجعلتنى لله ندا ؟ بل ما شاء الله وحده » (٢) ، وقال: « من كان حالفاً فَلْيَحْلِفْ بالله أو لِيَصْمُتْ » (٣) ، وقال :« من حلف بغير الله فقد أشرك » (٤) ،وقال لابن عباس: « إذا سألت فاسأل الله ،وإذا استعنت فاستعن بالله ، جَفَّ القلم بما أنت لاقٍ ، فلو جهدت الخليقة على أن تنفعك لم تنفعك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو جهدت أن تضرك

(١) ابن ماجه فى الكفارات (٢١١٨) ، والدارمى فى الاستئذان ٢/ ٢٩٥ ، وأحمد ٥ / ٧٢ .
(٢) سبق تخريجه ص ٥١ .
(٣ ، ٤) سبق تخريجهما ص ٦٣ .

لم تضرك إلا بشيء كتبه الله عليك » [1] ! وقال أيضاً : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » [2] ، وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثَنًا يُعْبَد » [3] ، وقال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » [4] ، وقال فى مرضه : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور / أنبيائهم مساجد » [5] يحذر ما صنعوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً . وهذا باب واسع . ١/١٣٧

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه ، فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب ، كما جعل المطر سبباً لإنبات النبات ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ** ﴾ [البقرة : ١٦٤] ، وكما جعل الشمس والقمر سببا لما يخلقه بهما ، وكما جعل الشفاعة والدعاء سبباً لما يقضيه بذلك ، مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت ، فإن ذلك من الأسباب التى يرحمه الله بها ، ويثيب عليها المصلين عليه ، لكن ينبغى أن يعرف فى الأسباب ثلاثة أمور :

أحدهما : أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لابد معه من أسباب أخر ، ومع هذا فلها موانع . فإذا لم يكمل الله الأسباب ، ويدفع الموانع ، لم يحصل المقصود ، وهو ـ سبحانه ـ ما شاء كان ـ وإن لم يشأ الناس ـ وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله .

الثانى : ألا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو يخالف الشرع ، كان مبطلاً ، مثل من يظن أن النذر سبب فى دفع البلاء وحصول النعماء . وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ : أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتى بخير وإنما يستخرج به من البخيل » [6] .

الثالث : أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سبباً إلا أن تكون مشروعة ، فإن العبادات مبناها على التوقيف ، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله ، فيدعو غيره ـ وإن ظن أن ذلك سبب فى حصول بعض أغراضه ـ / وكذلك لا يُعْبَد الله بالبِدَع المخالفة للشريعة ـ وإن ظن ذلك ـ فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك ، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان ، فلا يحل له ذلك ؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به ؛ إذ الرسول ﷺ بعث بتحصيل ١/١٣٨

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٦ .
(٢) سبق تخريجه ص ٥١ .
(٣ ، ٤) سبق تخريجهما ص ٥٢ .
(٥) البخارى فى الجنائز (١٣٣٠) ومسلم فى المساجد (٥٢٩ / ١٩) .
(٦) البخارى فى القدر (٦٦٠٨) ومسلم فى النذر (١٦٣٩ / ٤) .

المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فما أمر الله به فمصلحته راجحة ، وما نهى عنه فمفسدته راجحة ، وهذه الجمل لها بسط لا تحتمله هذه الورقة ، والله أعلم .

obeikandl.com

١/١٣٩ / وسئل ـ رحمه الله :

قال السائل : إن الله يسمع الدعاء بواسطة محمد ﷺ فإنه الوسيلة والواسطة .

فأجاب :

الحمد لله ، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد ، وطاعته ، والصلاة والسلام عليه وسيلة للعبد فى قبول دعائه وثواب دعائه فهو صادق ، وإن أراد أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى مخلوق ، أو يقسم عليه به ، أو أن نفس الأنبياء بدون الإيمان بهم وطاعتهم وبدون شفاعتهم وسيلة فى إجابة الدعاء ، فقد كذب فى ذلك . والله أعلم .

obeikandl.com